انطلاقا من تقرير "كوثر" الثاني لتنمية المرأة العربية :

أديب نعمه
منسق تقرير "الفتاة العربية المراهقة" كوثر 2003

مراهقات ومراهقون في زمن الحرب

نبتعد عن الكلام الباهت، بل كيف يكون كلام من هذا النوع فيما نحن نزعم أننا نتعامل مع المراهقات والمراهقين في البلدان العربية، وفي هذا الوقت بالذات : وقت الغضب، وقت التأمل والتفكير العميق، ووقت العمل على إنجاز التحوّل العميق في الوعي والوطن والعالم. لكنه ليس وقتا للانفعال العفوي، ولا للانهزام.

أربعة أجيال متعاقبة عاشت مراحل متشابهة. عام 1948، واجه جيل الشباب والمراهقين آنذاك الخسارة الأولى وقيام دولة إسرائيل.

عام 1967، أي بعد 19 عاما، وقف جيل آخر من الشباب والمراهقين مشدوها أمام جيوش إسرائيل وهي تحتل القدس، كأول عاصمة عربية يتمّ احتلالها، ومعها أراض تقع في ثلاث دول عربية أخرى.

عام 1982، وقف جيل ثالث أمام اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان، واحتلال ثاني عاصمة عربية.

واليوم، في نيسان - أبريل 2003، ها هو جيل رابع يقف مشدوها، غاضبا، محتارا، أمام احتلال أميركي لثالث عاصمة عربية، هي بغداد.

أربعة أجيال، أربع حروب كبيرة -عدا الحروب الصغيرة والداخلية- وكل جيل من المراهقين يواجه أسئلة أصعب من تلك التي واجهها الجيل السابق. واليوم تحديدا، فالحرب والاحتلال مشهد يومي مباشر على شاشات الفضائيات، والمواقف كلها مكشوفة أو تكاد، والآفاق كلها تبدو مسدودة أو تكاد. الغضب أشد، ووسائل التأثير والفعل تبدو أقل، والعالم أقرب ما يكون إلى لعبة استراتيجية كبيرة يتحكم بها لاعب كبير واحد ومساعدون. فما العمل؟

في العالم بأسره بدا وكأن المراهقين يستعيدون الصدارة في حركة مناهضة الحرب التي تفتحت في "ربيع عالمي" حيث نزل الملايين إلى الشوارع هاتفين من أجل السلام والعدالة. لفتت هذه الظاهرة نظر الصحفيين والباحثين، في ألمانيا كما في فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وغيرها من البلدان. تصدرت مراهقات ومراهقو الثانويات التظاهرات، فيما بدا وكأن الحركة المناهضة للحرب نجحت في استعادة هذا الجيل إلى الشارع وإلى الحركة بعد أن انكفأ عنها لصالح الجيل الأكبر عمرا بقليل من طلاب الجامعات. وفي البلدان العربية أيضا، كان هذا الجيل أيضا في مقدمة الصفوف، على امتداد سنوات في انتفاضة الحجارة، وفي المقاومة في لبنان، وفي ساحات كل العواصم والمدن العربية.

فالمراهقة لا تعني أولا البلوغ والتحولات الفيزيولوجية، بل هي أبعد من ذلك بكثير. والمراهقات والمراهقون، كما تبينا ذلك من خلال الاحتكاك المباشر معهم في دراستنا الميدانية *، لا يتصورون أنفسهم باعتبارهم تعبيرا عن يقظة المشاعر الجنسية الخارجة من كمون الطفولة. إن صورتهم أكثر تعقيدا، وهي أقرب إلى يقظة الوعي، والسعي إلى التضامن والإخاء الإنساني، وتوق إلى السلم ومستقبل آمن. وهي قبل كل شيء حساسية شديدة إزاء الظلم وإيمان مثالي بالعدالة. العدالة هي الكلمة المفتاح في عالم المراهق، وكذلك الصدق.

الوضع الراهن في صلب اهتمامات المراهقين

لهذا فإن ما يحدث اليوم يقع في صلب اهتمام المراهقات والمراهقين في البلدان العربية، وسوف يطبع بالتأكيد مسار حياتهم المستقبلية، عن وعي أو عن غير وعي، ناهيك عن كون التطورات الراهنة ترسي أسس النظام العالمي والعربي الذي سيعيشون في ظله.

ماذا قالت لنا الدراسة الميدانية، التي تمت في مرحلة تزامنت مع اعتداءات نيويورك وواشنطن، واشتعال الانتفاضة الفلسطينية والقمع الذي تعرضت له، والحرب على افغانستان والتهديد بالحرب ضد العراق ؟ لقد أفصحت عن الكثير من المشاعر والأفكار التي تدور في عقول المراهقات والمراهقين، والتي لا بد من أخذها بعين الاعتبار ونحن نواجه هذا التحوّل الجديد اليوم، مما يعطيها أهمية أكبر في رسم التوجهات والسياسات، وفي بلورة خطاب إعلامي وثقافي عقلاني يحصّنهم ويحصّن المجتمع من تكرار الحلقة المفرغة التي نعود إلى بدايتها مرة كل عشرين سنة تقريبا.

مراهقاتنا ومراهقونا في كل البلدان يكرهون الحرب، من المغرب إلى اليمن، من تونس إلى البحرين مرورا بمصر ولبنان، كلهم يصفون الحرب بأنها شر، وبأنها عمل لا إنساني ولا عقلاني. ويؤكدون أنه لا يوجد من يمكن أن يربح من الحرب، وأنه لا يجوز لأي إنسان أن يلجأ إليها كوسيلة لتحقيق أهدافه. إنه موقف حاسم لا لبس فيه، أساسه أخلاقي وفلسفي في الوقت نفسه. ولا اختلاف هنا بين مشرق ومغرب وبين فقير وغني، وبين فتاة وصبي، وبين مسلم ومسيحي. الكل على الموقف نفسه في إجماع لافت.

نقطة أخرى لافتة للأنظار، فإن الكل أيضا يرى أن سبب الحرب هو أن الدول القوية تحاول السيطرة على الدول الضعيفة، والكل أيضا يرى أن الولايات المتحدة الأميركية هي الدولة الأقوى وهي التي تتسبب في الحروب بسبب رغبتها في السيطرة على العالم. تضرب أفغانستان، تهدد العراق، تقصف يوغسلافيا السابقة، ولكن ما هو أهم بالنسبة إلى الجميع هو أن الولايات المتحدة تساند إسرائيل ضد الفلسطينيين وضد العرب وضد المسلمين. وهنا ينقلب الموقف، ويلتبس في ذهن المراهقات والمراهقين. هم يرفضون الحرب بالمطلق، ولكن كيف ينطبق هذا على فلسطين؟ يختلف الأمر في رأيهم : يريدون السلام لفلسطين، ولكن يميّزون بين حرب ومقاومة للاحتلال، بل ويخترعون تعريفا خاصا بهم : "هذه ليست حربا، إنها حرب فقط من جهة إسرائيل، ولكنها من جهة

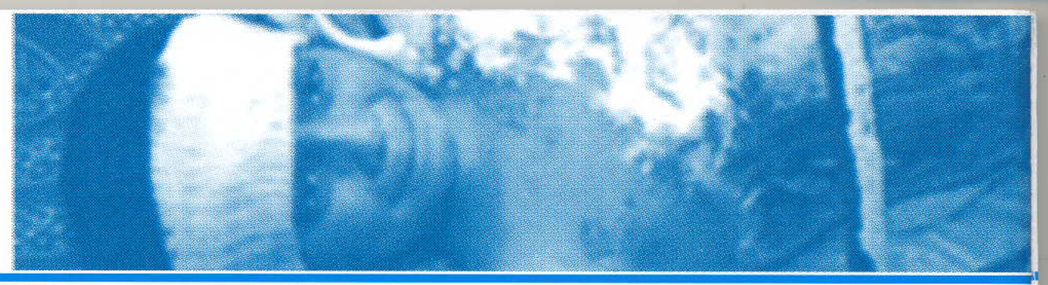

الفلسطينيين مقاومة احتلال. إنها ثورة ضد الظلم المطلق الذي يتعرض له الفلسطينيون. وأينما كان سكن المراهقة أو المراهق العربي، فقد بدا الموقف واحدا في الجوهر : تعاطف شديد مع الشعب الفلسطيني، وفي كل مكان غضب لمشاهدة صور القتلى وخصوصا الأطفال والأبرياء، وغضب من العالم والعالم العربي المتفرج والعاجز، وغضب من الذات العاجزة أيضا. أكثر من مراهقة ومراهق قالوا إنهم غضبوا وحزنوا حتى البكاء، وطرحوا على أنفسهم السؤال : "وماذا لو كنا نحن مولودين في فلسطين، ماذا كنا نفعل آنذاك؟". وأكثر من مرة أتى الجواب من أكثر من بلد، من مراهقات ومراهقين، ومن انتماءات مختلفة : "يجب أن نفعل شيئا، نصرخ، نتظاهر، ولما لا نذهب لنقاتل ونستشهد على أرض فلسطين". وكانوا صادقين، لا بل صادقين جدا.

ولكننا لا نزال في أرض الوضوح هنا. فالمسألة تتعقد حينما ننتقل إلى مساحات أكثر التباسا وتعقيدا. آنذاك تختلف الإجابات، وتتفاوت الآراء. وقد نجد أحيانا ارتباكا في تحديد الخطاب والمفاهيم والوسائل الفعالة المنتمية إلى لغة المستقبل في الإجابة على الأسئلة الصعبة. وهنا المسألة حساسة جدا، فإذا تشبّع المراهقات والمراهقون بمفردات مأزومة في التعامل مع الواقع، وهم في مرحلة تكوين وعيهم وقناعاتهم، فإن هذا التشوّه سوف يلازمهم سنوات طويلة ويحكم سلوكهم وهم نساء ورجال المستقبل .

تمثل أمريكا وإسرائيل في المشهد السابق، الفريق الظالم، وتمثل فلسطين الفريق المظلوم. والقاعدة الأخلاقية كافية وحدها لتحديد الموقف. ولكن ما الموقف من اعتداءات الحادي عشر من أيلول-سبتمبر 2001 وتداعياتها على سبيل المثال؟ الولايات المتحدة هنا هي أيضا الظالم، وأفغانستان والعراق هما المظلومتان. ولكن القاعدة الأخلاقية وحدها غير كافية، فللسياسة حضورها القوي هنا، لأن الأمر يتعلق بتقييم فعل التفجير في نيويورك وواشنطن، وفي تقييم جدوى هذا النوع من ردود الأفعال، وتقييم صورة وخطاب أسامة بن لادن، والمضمون الرمزي والواقعي الذي يحتويانه. هنا المواقف مرتبكة، فبين مراهقاتنا ومراهقينا من وجد أن اعتداءات 11 ايلول-سبتمبر 2001 هي عقاب وانتقام يستحقه الأمريكان. هكذا كان الانفعال الأوّلي ردا على الظلم المستمر الذي نتعرض له. ولكن في اللحظة التي تلي الانفعال يبدؤون في التفكير، ويطرحون على أنفسهم الأسئلة التالية : ولكن ما ذنب المواطنين الأمركيين؟ أليسوا هم أيضا مواطنون أبرياء وأناس مثلنا؟ هل هذا هو الأسلوب المناسب للرد على الظلم الأميركي؟ هل نستطيع فعلا أن نتحمل رد فعل الأميركيين على مثل هذا العمل؟ وهل غير الفقراء في أفغانستان والعراق والبلدان الأخرى من يدفع الثمن؟

البعض يجد في أسامة بن لادن زعيما من وزن جمال عبد الناصر، أو مثالا أعلى للمسلمين، وبعضهم يجد أنه يقارب الجنون فيما أقدم عليه. البعض يرى أنه البطل، والبعض الآخر يرى أنه مختبئ فيما غيره يموتون. البعض يفنّد بعقله مقولة صدام الحضارات، ويشير إلى الأهداف السياسية والاقتصادية لهذه الحرب باعتبارها حرب للسيطرة على العالم، والبعض الآخر من مراهقاتنا ومراهقينا يبدو مقتنعا بأنها "حرب صليبية" على الإسلام.

نكسة... هزيمة... وبعد ؟

وضعية شديدة الارتباك توجه الإصبع إلى الخطاب السياسي والإعلامي الذي يشكل المصدر الأول لتكوين قناعات المراهقات والمراهقين. لحظة حساسة بالطبع، وأكثر حساسية بعد احتلال العراق، حيث تكرر مع المتطوعين العرب هناك (وبعضهم مراهقون لم يتجاوزوا الثامنة عشر أو تجاوزوها بالكاد) المشهد نفسه الذي حصل "للأفغان العرب" مع الطالبان أثناء الحرب الأمريكية على أفغانستان. مشهد تراجيدي حقا. من جهة أولى متطوعون شبان كلهم حماسة ورغبة في الاستشهاد دفاعا عن العراق (حتى أن بعضهم الفلسطيني لم يفضل أرض بلاده على أرض العراق)، ومن جهة ثانية معركة تائهة في شوارع بغداد حيث تركتهم القيادات العسكرية العراقية أفرادا يقاتلون بلا أمل، لا بل نجد من يلقي عليهم اللوم لأنهم قاوموا وتسببوا في المزيد من الخسائر والأضرار للمدنيين العراقيين،؟

فكيف نفعل لكي لا يتكرر ذلك؟ كي لا تتكرر الهزيمة؟ كي لا تتكرر مأساة الاغتراب الشاملة هذه؟ اغتراب الأنظمة عن الشعوب، واغتراب الشعوب عن وسائل صناعة مستقبلها.

إنها لحظة للتفكير العميق. لحظة لتجاوز الانفعال العفوي والآني ولحظة لمخاطبة المستقبل ممثلا بالجيل الرابع من المراهقات والمراهقين كي لا يقتصر نقاشه لاحقا على الاختلاف على المفردات : هل هي نكسة أم هزيمة؟ هل خسرنا المعركة أم خسرنا الحرب؟ وهل الأولوية للتحرير أم للديمقراطية ؟.

ولكن.. يأتي أوّلا الإنسان في كليته وفي وحدته.

يأتي أولا أطفالنا ومراهقونا وشبابنا. فهم الحاضر والمستقبل، وهم الأمل ■

---

* دراسة ميدانية في سبع دول عربية وهي البحرين وتونس والجزائر والمغرب ولبنان ومصر واليمن في إطار تقرير تنمية المرأة العربية الثاني حول "الفتاة العربية المراهقة".

المصدر: صحيفة الزمان - لندن

"أربعة أجيال...أربع حروب كبيرة"